المحاضرة الثانية : اشكالية التحقيب في الرواية العربية

الجزء الاول

تتبع الدارسون مسيرة الرواية العربية المعاصرة منذ بدايتها كفن جديد يختلف تماما عن القديم و أكدوا أنها مرت بثلاث مراحل أساسية في كل مرحلة نجد مجموعة هائلة من أنواع الرواية وهذه المراحل هي :

1ـ مرحلة التقليد و التعريب (1850 ـ1914)

2ـ مرحلة التكوين و الابداع (1914ـ1939)

3ـ مرحلة التأصيل و النضج (1939ـ الى الآن)

و قال أغلبية النقاد أن هذا التحقيب و التقسيم الى مراحل تطور الجنس الروائي هو الأمثل نسبة لما هو موجود من انتاج على الساحة العربية.

أولا : الرواية العربية في مرحلة التقليد والتعريب

أنكر أغلب الباحثين الصلة بين القصة الحديثة و التراث القصصي عند العرب ،و لكن نجد أن العلاقة واضحة في بداية نشأنها حين نجد التأثر بفن المقامة جليا في قصة "حديث عيسى بن هشام" ل " محمد المويلحي" سنة (1900) حيث يتمثل التأثر بالمقامة في الأسلوب و الأحداث و يتمثل الأثر الغربي في تنويع المناظر و تسلسل الحكاية و بعض ملامح التحليل.

ـ كذلك قصة "علم الدين" ل"علي مبارك" التي جاءت على أسلوب المقامة ـ قصة عالم منور الفكر اسمه "علم الدين" يلتقي بسائح انجليزي و يذهب معه الى أوروبا يتناقشان حول التقاليد الشرقية و الغربية مرجحين تارة هذه وتارة تلك ـ

ـ كذلك "الساق على الساق" ل "أحمد فارس الشدياق" و هي شبيهة بالتراجم الذاتية تحدث فيها الكاتب عن مراحل حياته و أسفاره على أسلوب المقامات.

التأثر بأسلوب المقامة ساد لفترة في عصر النهضة و ذلك لأن الكتّاب حاولوا بناء الأسس القصصية الجديدة على أساليب القصة القديمة لحرصهم على التراث.

نجد كذلك "أحمد شوقي" في قصة "عذراء الهند" تناول موضوع تاريخ مصر القديم ،"حافظ ابراهيم" في "ليلي سطيح" انتقد فيها أوضاع مصر ،و "محمد لطفي جمعة" انتقد الظروف الاجتماعية في مصر.

ـ في أواخر القرن 19 ظهرت موجة جديدة من القصص اثر ترجمة القصص الغربي و كان أصحابها تواقين الى الأدب الاوروبي فترجموا قصص موضوعاتها رومانسية تدور حول الحب و العاطفة.

و قد انتجوا كذلك قصصا على منوالها تغلب عليها النزعة الرومانسية للتسلية و المتعة ،و قد بدأت الموجة على يد اللبنانيين منهم "سليم البستاني" الذي يعتبر الرائد لهذا التيار ،فقد

ألف عددا كبيرا من القصص نشرها في مجلة"الجنان" و من قصصه "الهيام في جنان الشام" موضعها قصة رجل و امرأة يلتقيان تارة و يفترقان تارة أخرى ،و قصة "أسماء" تدور حول رجال أحبوا فتاة و كل منهم يحاول جذبها اليه .و بما أن "سليم البستاني " كان صحفيا اهتم بمختلف الموضوعات و بحكم مهنته اتجه الى تبسيط اللغة و الاقتراب من الدارجة.

كان للصحف الدور البارز في انتشار القصة و اتساع دائرتها حيث ظهرت مجموعة من الصحف:

"الأخبار" ،"وادي النيل" ،"الأهرام" ،"المقتطف" ،" الهلال"... و قد خصص كل منها باب للقصص الموضوعة و المترجمة و ساهمت المجلات الشهرية كذلك في نشر الرواية : منها "سلسلة الفكاهات في أطايب الروايات" و "حديقة الأدب"....

من أعلام الرواية في هذه المرحلة "فرح انطوان"،"نقولا حداد" ،"يعقوب صروف" ،"طاهر حقي" ، "المنفلوطي" ....

تأثرت الرواية في هذه الفترة بالتراث ،و التاريخ العربي ،و في هذا الاطار تدخل الرواية التاريخية ل"جرجي زيدان" و "علي الجارم" و "محمد فريد أبو حديد"... اعتمدت هذه الروايات على السرد الحدثي دون تحليل الأحداث و الشخصيات ،مما جعل هذه الروايات غامضة الملامح و يغلب عليها طابع التقريرية ،كما أن غاية هذه الروايات لم يكن الفن بقدر ما كان التعليم و ذلك لأن هؤلاء الروائيين كانوا مصلحين و لذا جاءت أعمالهم مضمونية.

ما يمكن أن نقوله عن روايات هذه المرحلة أن أعمال هؤلاء الكتاب في أغلبها تقليدا للقصة الغربية كما أن تأليف الروايات بالنسبة لهم كان هواية و لم تكن منبعثة انبعاثا حقيقيا من البيئة العربية ـ نستثني الروايات التاريخية.

ـ لكن بعض المهجريين اطلعوا على النماذج الغربية بصفة عميقة فكانت أعمالهم أمثل و أنضج مثل"الأرواح المتمردة" ل"جبران خليل جبران" سنة 1908 و "العواصف"سنة 1910،"الأجنحة المتكسرة" سنة 1912 و "أمين الريحاني" في رواية "خارج الحريم" ،فهذه الأعمال تختلف كثيرا من ناحية تعقد الأحداث و تمثل تطورا ملحوظا.

أما العمل المتميز الذي اعتبر أول عمل روائي حقيقي مبشر بمرحلة جديدة في القصة العربية ألا و هي مرحلة التكوين القصصي العربي فهو رواية "زينب" ل"محمد حسنين هيكل" التي نشرها سنة 1914 و كانت ثمرة لتزاوج المجتمعين العربي و الأوروبي حيث كتبها خارج الوطن و لكن تحدث فيها عن البيئة المصرية.

ثانيا : مرحلة تكوين الرواية العربية (1914- 1939)

فترة مابين الحربين العالميتين اعتبرت مرحلة تكوين الأدب الروائي عند العرب ،فالحرب العالمية و ما تبعها من أحداث و تحولات في تركيب المجتمعات العربية و تغير في القيم ،و تطور في الثقافة و السياسة ،و الوعي القومي ،و الانتفاضات الوطنية ،كل هذا كان جوا جديدا و ذوقا مختلفا عن سابقه ،و تطلب أسلوبا جديدا للتعبير عن هذه التحولات الجديدة.

و في هذه الفترة بسبب الحروب و الفتن الداخلية هاجر اللبنانيون الى" مصر" فانتقلت الريادة اليها بعد أن كانت في " لبنان".

و بما أن الأجيال الجديدة تعرفت على العلوم و الثقافة الأوروبية و اطلعت على اديولوجية التحرر و الاستقلال ،فقد شكلت منظمات سياسية و أحزاب تهتف بالوعي السياسي و الاجتماعي و التحرر الوطني.

و اهتم المفكرون بالتاريخ المصري قصد بث الأمل في النفوس و الاعتزاز بالشخصية الوطنية ، فانتشرت الصحف و المجلات و غيروا المناهج التعليمية ،كما انتقدوا العادات و التقاليد المانعة للتقدم...

هذا الجو هيأ مناخا جديدا استوعبه الكتاب الجدد الذين راموا الخروج بالمجتمع من التخلف و دفعه الى التقدم والرقي.

فأخذت القصة طابع المحلية و القومية ،و أصبحت تصور فئات المجتمع ،من كتاب هذه المرحلة:

ـ"طه حسين " الذي ساهم في ارساء قواعد الفن القصصي من أعماله "الأيام" و "أديب" و "دعاء الكروان" ،و انتقد فيها القضايا الاجتماعية و التعليمية و التربوية.

ـ" توفيق الحكيم" الذي صور المجتمع و الواقع و من آثاره "يوميات نائب في الأرياف" و "عودة الروح" "عصفور من الشرق".

ـ نجد كذلك "عيسى عبيد" و من أعماله قصة "ثريا" و " طاهر لاشين" كتب قصة "حواء بلا آدم" و "محمد تيمور...

ما نلاحظه في هذه المرحلة ،ظهور التحليل النفسي وقد حمل لواءه "محمود عباس العقاد" و "ابراهيم المازني" لتأثرهما بمدرسة التحليل النفسي الغربي ،و قد كتب "العقاد" رواية "سارة" عام 1938 و هي صورة واضحة لمنهج "العقاد" التحليلي و كتب "المازني" قصة "ابراهيم الكاتب" عام 1931 و قصة "عود على بدء" عام 1943.

رأينا أن الوعي القومي و الاحساس بالشخصية العربية في الوطن العربي بدأ في "مصر" و انتقل الى لبنان حيث كتب الأدباء روايات على غرار الروايات المصرية ،و عالجت القضايا القومية و المشاكل الاجتماعية كرواية "العمال الصالحون" ل "الياس أبو شبكة" تعالج موضوع انتحار طفل للتخلص من حياة الشقاء مع زوجة أبيه.

و "كرم ملحم كرم" الذي انقذ الرواية اللبنانية و أحياها من جديد ،و من أعماله رواية "صرخة الألم" كتبها عام 1939 و رواية "الشيخ قرير العين" كتبها عام 1944 رواية "صقر قريش"..... و قد جمع في رواياته الاتجاه الاجتماعي و التاريخي إلا أنه يبرز الاجتماعي أكثر.

كذلك من أعلام الرواية في "لبنان" في هذه الفترة "لطفي حيدر" كتب رواية "عمر أفندي" صور فيها كوارث الحرب العالمية الأولى الاجتماعية.

نجد أيضا "توفيق عواد" الذي يعتبر قمة الروائيين اللبنانيين في هذه الفترة ،و من أهم آثاره رواية "الرغيف"كتبها عام 1939 يدور موضوعها حول صراع العرب من أجل الاستقلال....

ـ و "سوريا" كذلك خطت خطوات هامة في مجال الرواية في هذه الفترة و من أهم الروائيين "معروف الأرناؤوط" الذي كتب الروايات التاريخية كرواية "سيد قريش" و رواية "عمر بن الخطاب" نجد كذلك روايات في "العراق" و الأردن" و "السودان" لطنها قليلة نسبة الى البلدان الأولى .

أهم مميزات روايات هذه المرحلة :

ـ أنها صورة صادقة عن أفكار الطبقات الوسطى ،تتمثل فيها الأحلام ،و الهموم ،و القيم ،و الموازين المتعلقة بهذه الطبقة الجديدة البروز (الطبقة الوسطى).

- من سمات هذه الطبقة ،حب الاستكشاف ،و حب البحث عن الحقيقة ،و الرغبة في المعرفة ،و خوض المخاطر و التجارب الجديدة.

ـ كذلك من صفاتها ،التأمل في ملكوت السماوات و الكون ،و حب الطبيعة ،و الشغف بجمالها.

ـ بما أن الروايات في هذه الفترة اهتمت بالطبقة الوسطى لا نجد بها تعلق بالطبقات الأرستقراطية أو تمثيل لعاداتهم و قيمهم ،كما لا نجد الصراع الطبقي و التنظيم الاقطاعي و ما يتفرع منه من طبقة حاكمة مستبدة و طمس لفردية الانسان وحريته ،بل التفتت لأهمية الفرد و شخصيته و تجاربه و قدرته على التخلص من الكوارث والمصائب التي تعترض طريقه نحو التحرر و الانطلاق و البحث عن المجهول.

ـ من الناحية الثقافية : أعمال هذه المرحلة ثمرة من ثمرات امتزاج الفكر الشرقي العربي بالفكر الغربي الأوروبي و تفاعلهما في شتى المجالات. و لذا امتازت روايات هذه الفترة بالتخلص من ثنائية الثقافة الغربية و الشخصية العربية ،و ذلك لأن الثقافتين ـالعربية و الغربيةـ تفاعلتا و أصبحتا تنتجان ثمرة واحدة .

ـ المشاكل الاجتماعية المطروحة في هذه الفترة طرحت من أجل ايجاد حلول لها و معالجتها و اصلاحها ،فقد كان شأن الكتاب نفس شأن المصلحين.

ـ كتّاب هذه المرحلة اذن لهم رسالة اجتماعية و فنية ،فمن الناحية الاجتماعية أصبحوا كالمصلحين يبدون مواقفهم من التقاليد و الصراعات الاجتماعية ،و من الناحية الفنية لم تعد الأعمال الروائية للتسلية ،أو منبرا للمواعظ و النصائح ،أو وسيلة لعرض المعلومات و المعارف ، بل أصبحت الغاية فنية ،و أصبحت الكتابة في هذا الفن عملا يعتز به صاحبه ،و يتثقف من أجله ،و يبحث في كل وسائل النجاح من أجل اخراج عمل فني رائع يجمع بين الرسالة الفنية و الاجتماعية.